أهل الظاهر وأثرهم بالمجتمع المصرى
فى العصر المملوكى

د. عبد الباقى السيد عبدالهادى[*]

تمهيد عن أهل الظاهر [1] فى العصر الأيوبى : كان لأهل الظاهر فى العصر الأيوبى مشاركات واضحة فى المجتمع المصرى تتضح من خلال جهودهم العلمية والسياسية [2] التى تمت على يد ثلة منهم كأبى عبدالله محمد بن إبراهيم بن ثابت الكيزانى الظاهرى المقرىء (ت ٥٦٢هـ)[3] ، والحافظ إبراهيم بن خلف السنهورى [4] (ت٦٢٠هـ/١٢٢٣م) ، والعلامة المحدث الرحال المتفنن القاضى أبو الخطاب ابن دحية الكلبى الظاهرى (ت ٦٣٣هـ) [5] الذى كافأه الملك الكامل (٦١٥هـ-٦٣٥هـ) على علمه وحفظه وإتقانه بأن بنى له دار الحديث الكامليّة بالقاهرة سنة ٦٢١هـ ، وجعله شيخاً لها [6] ، وعثمان بن حسن بن على بن الجميل الكلبى السبتى (ت ٦٣٤هـ) شقيق عمر بن دحية [7] ، والملك المحسن ظهير الدين أبو العباس أحمد بن يوسف بن أيوب بن شاذي (ت ٦٣٤هـ) ابن السلطان صلاح الدين الأيوبى [8] ، ومحيى الدين ابن عربى الظاهرى (ت٦٣٨هـ) صاحب الفتوحات المكية [9] .

أهل الظاهر فى العصر المملوكى : كذلك ساهم أهل الظاهر خلال العصر المملوكى بجهود علمية وفكرية وسياسية فى مصر وهو ما يتضح فى الجهود العلمية والفكرية المتمثلة فى مشاركات أهل الظاهر فى التصنيف والتأليف والتدريس للعلوم النقلية واللسانية والعقلية . ففى علوم الشريعة نلتقى بثلة من رجال الظاهرية منهم : محمد بن محمد بن سهل بن مالك الأزدى

الغرناطى الأندلسى الظاهرى (ت٧٣٠هـ)[١٠] . قدم مصر ، وكان كثير النظر فى كتاب المحلى لابن حزم ويميل إلى مذهبه على قول المقريزى [١١] ، وقد أكد ظاهريته كل من الذهبى [١٢] والأدفوى [١٣] وابن حجر [١٤] ، وتتضح همته فى علم الحديث من قول الحافظ الذهبى : قدم علينا فقرأ الصحيحين فى دون الشهر وكان أثريا ظاهريا " [١٥] .

ومنهم أثير الدين أبو حيان الجيانى الغرناطى الأندلسى ثم المصرى الفقيه والمحدث والمفسر الشهير (ت ٧٤٥هـ) قدم مصر في سنة ٦٨٠هـ فى عهد السلطان المنصور سيف الدين قلاوون (٦٧٩هـ-٦٨٩هـ) وسمع الكثير من نحو أربعمائة شيخ وأجازه خلق يوفون على ألف وخمسمائة نفر وقد ذكر ذلك في كتاب سماه التبيان فيمن روى عنه أبو حيان ، وقد ظهرت جهوده وآثاره من خلال دروس التفسير التى خصصت له بالجامع الطولوني والقبة المنصورية ثم أضيف إليه مشيخة الحديث بها أيضا ، وقد أثمرت جهوده فى التدريس حيث تخرج على يديه نخبة من التلاميذ بمصر أثروا الحياة العلمية والفكرية منهم :١-بهاء الدين السبكى أحمد بن على بن عبدالكافى . ٢- عبد الرحيم بن الحسن بن علي جمال الدين الإسنوي. ٣- ابن هشام الأنصاري.

ولعل جهوده تتضح أكثر فأكثر من خلال أقوال أهل العلم فيه من تلاميذه وأقرانه ومن تلاهما فهذا تلميذه الذهبى يقول عنه : " الإمام العلامة ذو الفنون حجة العرب عالم الديار المصرية وصاحب التصانيف البديعة وله عمل جيد في هذا الشأن وكثرة طلب " ، وقال عنه شيخ القراء ابن الجزري " له التفسير الذي لم يسبق إلى مثله سماه البحر المحيط " [١٦] ، وقال العلائي كان علامة كثير النقل والإطلاع جدا إلى مالا يوصف [١٧] ، ويوضح الأدفوى عظمته فى الحديث والمعتقد بقوله " كان ثبتا صدوقا حجة سالم العقيدة من البدع

الفلسفية والاعتزال والتجسيم" [١٨] ، وقال السيوطي :" نحوي عصره ولغويه ومفسره ومحدثه ومقرؤه ومؤرخه وأديبه ".

ومن جهوده تصنيفه التصانيف المشهورة فى علوم القرآن ، والفقه ، والحديث [١٩] .

ظاهريته : بدأ أبو حيان الغرناطى فى أول أمره ماليكا ثم تحول إلى القول بالظاهر ،وهذه الأدلة والبراهين على ظاهرية الرجل حتى وفاته:

أولا : قول أبى حيان نفسه حيث قال " محال أن يرجع عن مذهب الظاهر من علق بذهنه" .

ثانيا : أن ابن دقيق العيد أنشد قصيدة بمصر وكان أبو حيان مواجها له وطلب منه تفسيرها ... فقال أبو حيان : " ما وصلت فى الظاهرية إلى هذا الحد ؟! [٢٠] . فهذا اعتراف صريح من أبى حيان بظاهريته وهو بمصر .

ثالثا : أكد أبو حيان نفسه فى شعره على نبذ الرأى واتباع السنن حيث قال : أما إنه لولا ثلاث أحبها ... تمنيت أني لا أعد من الأحيا
فمنها رجائي أن أفوز بتوبة ... تكفر لي ذنبا وتنجح لي سعيا
ومنهن صوني النفس عن كل جاهل ... لئيم فلا أمشي إلى بابه مشيا
ومنهن أخذي بالحديث إذا الورى ... نسوا سنة المختار واتبعوا الرأيا
أتترك نصا للرسول وتقتدي ... بشخص لقد بدلت بالرشد الغيا [٢١] .

قلت : وهو فى هذا المنحى أشبه بما فعله الكثير من أهل الظاهر كابن حزم وتلميذه الحميدى.

رابعا : تأكيده على ظاهريته فى صدر تفسيره البحر المحيط حيث قال: "وربما أذكر الدليل إذا كان الحكم غريباً أو خلاف مشهور ما قال معظم الناس ،

بادئاً بمقتضى الدليل وما دل عليه ظاهر اللفظ ، مرجحاً له لذلك ، ما لم يصد عن الظاهر ما يجب إخراجه به ، منكباً في الإعراب [٢٢] .

خامسا : عنايته بمنهج ابن حزم حيث اختصر المحلي في كتاب أسماه (الأنور الأجلى في اختصار المحلى) ، واعتمد كثيرا من أحكامه وأقواله في تفسيره [٢٣] .

سادسا : دفاعه عن داوود وترجيحه لأقواله وهذا نص قوله في مسألة لحم الخنزير " ولحم الخنزير ظاهره أن المحرم منه هو لحمه فقط وقد ذهب إلى ذلك داود رأس الظاهرية فقال المحرم اللحم دون الشحم وقال غيره من سائر العلماء المحرم لحمه وسائر أجزائه .. وقال ابن عطية ... وأجمعت الأمة على تحريم شحمه انتهى كلامه ... وقوله أجمعت الأمة على تحريم شحمه ليس كما ذكر ألا ترى أن داود لا يحرم إلا ما ذكره الله تعالى وهو اللحم دون الشحم إلا أن يذهب ابن عطية إلى ما يذكر عن أبي المعالي عبد الملك الجويني من أنه لا يعتد في الإجماع بخلاف داود فيكون ذلك عنده إجماعاً وقد اعتد أهل العلم الذين لهم الفهم التام والاجتهاد قبل أن يخلق الجويني بأزمان بخلاف داود ونقلوا أقاويله في كتبهم كما نقلوا أقاويل الأئمة كالأوزاعي وأبي حنيفة ومالك والثوري والشافعي وأحمد ودان بمذهبه وقوله وطريقته ناس وبلاد وقضاة وملوك الأزمان الطويلة....[٢٤] .

سابعا : أن ظاهرية أبى حيان فى الفقه والأصول دفعته لتطبيقها على النحو مثله في ذلك مثل ابن مضاء القرطبي حيث اتخذ السماع أساس كل حكم، ولم يقس إلا على ما كثر فيه السماع ، وإذا اجتمع عنده السماع والقياس رجح السماع وأخذ به . بل إنه أرجع بعض الاختلاف والتعقيد في المسائل النحوية المعقدة إلى القياس الذى أفسد النحو وعقد دراسته [٢٥] .

ثامنا : أن كتاب الدر المصون فى علم الكتاب المكنون لابن السمين الحلبي تلميذ أبى حيان (ت ٧٥٦هـ) يغلب عليه التفسير الظاهري تأثراً من ابن السمين بشيخه .

تاسعا : أن أهل العلم أكدوا ظاهرية أبى حيان حيث قال الإدفوى عنه : كان يميل إلى مذهب أهل الظاهر [٢٦] وقال العلامة المقريزى الظاهرى " كان ظاهرى المذهب متعصبا لأبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم" [٢٧] .

ومن أهل الظاهر الذين برزوا فى العلوم الشرعية أبو العباس أحمد بن سعيد بن كحل القلنسى اليمنى(ت ٧٧٤هـ) المعروف بالزيلعى قرأ باليمن ثم قدم القاهرة سنة ٧٥٩هـ ، وتولى مشيخة الإقراء بالشيخونية . قال ابن الجزرى : كان على مذهب أهل الظاهر [٢٨] .

ومنهم أبو الحسن على بن إبراهيم بن خضر بن سعد بن معاذ الأنصارى الأوسى (ت ٧٧٤هـ) من ذرية الصحابى الجليل سعد بن معاذ قدم مصر ومات بها وكان متظاهرا بمذهب أهل الظاهر يناضل عنه ويجادل ، ونسخ غالب كتب ابن حزم واتبعه على مذهبه بعض الشيوخ منهم الشيخ أحمد القصير [٢٩] .

ومنهم أبو العباس أحمد بن عثمان بن عيسى بن حسن نجم الدين الياسوفى الدمشقى (ت٧٨٧هـ) يعرف بابن الجابى ولد سنة ٧٣٦هـ ونشأ فقيرا ودرس الفقه والأصول وكتب الكثير من الكتب الحديثية ، وكان جابى أوقاف الشام فعرف به . ثم حصلت له ثروة من زوجته ماتت فورثها هو وابنه ودخل القاهرة وعمل بالتجارة ، وحصلت له وجاهة بالقاهرة فأصبح كاتب السر الأوحد ، وولى التدريس بالظاهرية ، وأعاد بالشامية الجوانية ، وتتضح ظاهريته من خلال ورود اسمه فى مرسوم السلطان القاضى بالقبض على جماعة من فقهاء الظاهرية [٣٠] .

ومنهم الحافظ صدر الدين سليمان بن يوسف بن مفلح بن أبى الوفاء الياسوفى (ت ٧٨٩هـ) : ولد سنة ٧٣٩هـ اعتنى بالحديث ورحل إلى مصر فسمع بها جماعة ودرس وأفتى واستمر على الاشتغال بالحديث يسمع ويفيد الطلبة القادمين ، وكان قبل أن ينتحل القول بالظاهر شافعيا متعصبا حتى أنه كان يعتقد الكفر لمن يخطىء الإمام النووى . وكان يعير الكتب النافعة بسهولة ، ويكثر من إطعام الناس ، وترافق هو وبدر الدين بن خطيب فتركا الوظائف وتزهدا وصارا يأمران بالمعروف وينهيان عن المنكر وأوذيا بسبب ذلك مرارا . كما أوذي في فتنة الفقهاء – الفتنة الظاهرية- القائمين على الملك الظاهر فسجن حتى مات في السجن مع أنه صنف في منع الخروج على الأمراء [٣١] ، وسنفصل الحديث عن الفتنة الظاهرية عند الحديث عن الدور السياسى لأهل الظاهر.

ومنهم أحمد بن على بن عبدالله التميمى القصار (ت سنة ٨٠٠هـ) ولد عام ٧١٨هـ ، ومال إلى مذهب أهل الظاهر لصحبته الشيخ أبى الحسن بن معاذ حتى عرف به ، قدم مصر وتوفى بها ، وقد صحبه العلامة المقريزى سنين طويلة وانتفع منه كثيرا وقال المقريزى أول ما سمعته يقول " ثلاثة أنفس حرم الناس بالتعصب عليهم فوائد كثيرة من كلامهم وهم : أبومحمد بن حزم ، ومحيي الدين بن عربى الصوفى ، وتقى الدين ابن تيمية " [٣٢] .

ومنهم أبو عبدالله محمد بن محمد بن على بن عبدالرازق الغمارى (ت ٨٠٢هـ) . ولد سنة ٧١٩ هـ وعنى بالعربية وشغل بتدريس القراءات بالشيخونية ، ودرس على يد أبى حيان الغرناطى الظاهرى وحدث عنه بالبردة عن ناظمها ، وممن تتلمذ على يديه المؤرخ المقريزى الشهير ، ولعله كان السبب فى تحوله للقول بالظاهر هو والقصار آنف الذكر ، وتتضح ظاهريته من قول ابن حجر : كان يميل إلى مذهب الظاهر ولا يصرح به [٣٣] .

ومنهم أبو بكر بن أبي المجد بن ماجد بن أبي المجد بن بدر بن سالم السعدي الدمشقي المصري (ت ٨٠٤هـ) ولد عام ٧٣٠هـ كان محدثا ، عارفا بالحديث وعلله ورجاله سمع من المزي والذهبي وابن عبدالهادى وابن القيم ، وحدث عن الذهبي بترجمة البخاري بسماعه ، سكن مصر قبل سنة ٧٦٠هـ فقرر في طلبة الشيخونية ولم يزل بها حتى مات ، ذكره الحافظ ابن حجر في أنبائه وقال اجتمعت به وأعجبني سمته وانجماعه وملازمته للعبادة ، وقال المقريزى : دأبه النظر فى كتب الحديث ...والعمل بها فى أنواع القرب والطاعات ...دائم الخشوع إذا قام للصلاة كأنما تعاين السلف الأول من حسن سمته وهديه لا يبرح فى عبادة إما تخريج أحاديث ليعمل بها أو أداء ما أمر به من فرائض العبادات وندب إليه من فرضها .... وكذلك اجتنب كل ما نهى الله عنه فى القرآن والسنة الصحيحة .. وانفرد بأشياء منها وجوب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في دعاء الاستفتاح ، وأن يقول لا إله إلا الله فى أذانه مرتين ، ويقول فى الإقامة قد قامت الصلاة مرة ويستدل على ذلك بقوله " أمر بلال أن يشفع الاذان ويوتر الإقامة " ، وينتف شعر شاربه لقوله عليه السلام " وأنهكوا الشارب " قال ومعنى أنهكوا استأصلوا ولا يكون الإستئصال إلا بالنتف ، ويرى أنه لا تجوز قراءة القرآن بجماعة من الناس لقوله تعالى " وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له "... ولذلك كان العبد الصالح أحمد بن البرهان يقول : " صاحبنا الشيخ العماد ليس بفقيه النفس إلا أنه رحمه الله كان مجتهدا لنفسه غير متعرض لأحد.ولعمرى ما وقعت عيني على أتبع لسنة رسول الله منه فى قوله وعمله وعقده [٣٤] .

قلت : من كلام المقريزى السابق يتضح الآتى :

أولا : أن التزام أبو بكر بن أبي المجد بن ماجد باتباع السنة وتخريج الحديث والعمل بما فى الكتاب والسنة والتعويل على اللغة فى تفسير النص هو دأب أهل الظاهر فى كل عصر ومكان .

ثانيا : أن وصف المقريزى لأحمد بن البرهان بالعبد الصالح يؤكد على ظاهرية المقريزى ، وكذا على الصلة التى جمعت أهل الظاهر بعضهم ببعض .

ويتضح أثره من خلال نشره لكلام ابن حزم ومصنفاته إذ كان يبالغ فى تعظيمه ويعتنى بكلامه [٣٥] فضلا عن تصانيفه الفريدة ومنها تجريد الأوامر والنواهي من الكتب الستة ، ومختصر تهذيب الكمال.

ومنهم شهاب الدين أبو هاشم ابن البرهان الظاهرى (ت ٨٠٨هـ) : أحمد بن محمد بن إسماعيل بن عبد الرحيم بن يوسف، الشيخ الإمام العلامة الظاهري. ولد فيما بين القاهرة ومصر في شهر ربيع الأول سنة ٧٥٤هـ ، كان أبوه من العدول، ونشأ أحمد بالقاهرة ، وتحول لأهل الظاهر على يد سعيد السحولى [٣٦] ، ثم نظر في كلام ابن تيمية فغلب عليه حتى صار لا يعتقد أن أحدا أعلم منه ، وكانت له نفس أبية ومروءة وعصبية ونظر كثير في أخبار الناس فكانت نفسه تطمح إلى المشاركة في الملك وليس له قدم فيه لا من عشيرة ولا وظيفة ولا مال.

قال ابن حجر : سمعت من فوائده كثيرا وكان كثير الإنذار لما حدث بعده من الفتن ولا سيما ما حدث من الغلاء والفساد بسبب رخص الفلوس حتى رأى عندي قديما مرة خابيا كبيرا من الفلوس فقال لي : احذر أن تقتنيها فإنها ليست رأس مال وكان كذلك فإنها في ذلك الوقت كان القنطار منها يساوي عشرين مثقالا أو أكثر وآل الأمر في هذا العصر إلى أنها تساوي أربعة مثاقيل ثم صارت تساوي ثلاثة ثم اثنين وربع ونحو ذلك ثم انعكس الأمر بعد ذلك وصار من كان عنده منها شيء احتيط به لما رفعت قيمتها من كل رطل منها بستة دراهم إلى اثني عشر ثم إلى أربعة وعشرين ثم تراجع الحال لما فقدت ثم ضربت فلوس أخرى خفيفة جدا وجعل سعر كل رطل أكثر من ثلاثين وظهر

في الجملة أنها ليست مالا يقتنى لوجود التخلل في قيمتها وعدم ثباتها على قيمة واحدة.

ويتضح أثره من خلال مناظرته لمن كان ينتقد الظاهرية فى عصره ، ثم رحل وطاف البلاد البعيدة ودعا الناس إلى العمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فاستجاب له بشر كثير من خراسان إلى الشام.

قلت : وفى هذا دليل على ازدهار المنهج الظاهرى خلال القرن الثامن الهجرى فى المشرق بأسره رغم التضييق والاضطهاد والتنكيب الذى وقع بحق الظاهرية.

وقد أكد ابن حجر جهد ابن البرهان فى الدفاع عن الظاهرية بقوله : كان ... عارفا بأكثر المسائل التي يخالف فيها أهل الظاهر الجمهور يكثر الانتصار ويستحضر أدلتها وما يرد على معارضها ، وقد توج ابن البرهان جهوده ببعض المصنفات حيث أملى وهو في الحبس مسألة رفع اليدين في السجود ، ومسألة وضع اليمنى على اليسرى ، ورسالة في الإمامة.

ومنهم الفقيه أبو زيد علي بن زيد بن علوان بن صبرط بن مهدي بن حريز الردماوي الزبيدي (ت٨١٣هـ) ولد بردما باليمن في جمادى سنة ٧٤١هـ ونشأ بها وجال في البلاد ثم حج وجاور مدة وسكن الشام ودخل العراق ومصر ، وبرع في الحديث والفقه والنحو والتاريخ والأدب وكان يستحضر من الحديث كثيرا ومن الرجال ويذاكر من كتاب سيبويه [٣٧] ، ويؤكد ابن حجر ظاهريته وجهده فى نشر مذهبه الظاهرى بقوله : "ويميل إلى مذهب ابن حزم وتحول إلى البادية فأقام بها نحو عشرين سنة يدعو إلى الكتاب والسنة ثم قدم القاهرة وقد ضعف بصره وكان شهما قوي النفس له معرفة بأحوال الناس على اختلاف طبقاتهم ، و تسمى بآخره عبد الرحمن [٣٨] .

قلت : ومما يؤكد ظاهريته مشاركته فيما عرف بالفتنة الظاهرية ضد الظاهر برقوق إلا أنه خشى على نفسه فاختفى بالصعيد . ومن شعره الذى يؤكد ظاهريته :

ما العلم إلا كتاب الله والأثر وما سوى ذلك لا عين ولا أثر

إلا هو وخصومات ملفقة لا يغرنك من أربابها هذر

فعد عن هذيان القوم مكتفيا بما تضمنت الأخبار والسور

ومنهم أبو بكر بن على بن يوسف الهاشمى الحسنى الموصلى **(ت ٨١٥هـ)** من أهل الموصل ، قدم إلى مصر واستوطنها وتوفى بها ، وكان فقيرا قانعا ، ملازما للصلاة ، وكان يدرس للناس بجامع الحاكم بأمر الله، وكان يحترف الحرف ويتكسب لينفق على عياله .

ظاهريته : قال المقريزى : مال إلى مطالعة كتب الحديث والعمل بالظاهر طريقة أبى محمد بن حزم [٣٩] ، وقال السخاوى نقلا عن شيخه ابن حجر : امتحن بمحبة المذهب الظاهرى فمقت بسببه [٤٠] .

قلت : من قول السخاوى يتضح مدى المحنة التى كان يعانيها أهل الظاهر فى العصر المملوكى من مقت وتضييق .

ومنهم شمس الدين محمد بن إبراهيم بن أحمد الصوفى (ت ٨٣٢هـ) ولد سنة ٧٤٩هـ ، أقبل على المذهب الظاهرى وأهل الحديث ، واتصل بالظاهر برقوق فولاه نظارة المارستان ثم استأذن الظاهر برقوق للحج وتوجه لليمن وطاف بالبلاد ، وعاد للقاهرة بعد وفاة الظاهر برقوق .

ومنهم تقى الدين المقريزى (ت٨٤٥هـ) أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن تميم ابن عبد الصمد بن أبى الحسن بن عبد

الصمد بن تميم التقى أبو العباس الحسينى العبيدى البعلى الأصل القاهرى ويعرف بابن المقريزى وهى نسبة لحارة في بعلبك تعرف بحارة المقارزة . ولد سنة ٧٦٦هـ بالقاهرة ونشا بها نشأه حسنة فحفظ القرآن وسمع من جماعة من الشيوخ كالآمدى والبلقينى والعراقى والهيثمى [٤١] ، وحج فسمع بمكة ثم بالشام **وتتضح جهود العلامة المقريزى** فى العلوم الشرعية من خلال ما تولاه من مناصب دعوية وعلمية فقد تولى إمامة الجامع الحاكم ، واشتغل مدرسا لعلم الحديث في المدرسة المؤيدية، بتوصية من أستاذه عبد الرحمن بن خلدون الذي كان له منزلة عند السلطان برقوق, وتولى الخطابة بجامع عمرو بن العاص والإمامة بمدرسة السلطان حسن ، وامتد أثره التعليمى خارج مصر فباشر تدريس الحديث الشريف في مدرستي الإقبالية , والأشرفية بدمشق ، ومكث بمكة خمس سنوات يدرس ويصنف الكتب ثم رجع بعدها إلى القاهرة [٤٢] ، وسكن في حارة برجوان التي نشأ وترعرع فيها، وأضحت داره ندوة للعلم ومقصد الطلاب والعلماء. كما تتضح جهوده من خلال مصنفاته الماتعة فى الفقه والحديث والمعتقد [٤٣] .

وقد امتدحه أهل العلم على جهوده فقال عنه ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ- ١٤٤٨م) : واشتغل كثيرا وطاف على الشيوخ ولقى الكبار وجالس الأئمة وتفقه حنفيا على مذهب جده لأمه ثم تحول شافعيا، وقد أحب الحديث فواظب عليه حتى كان يتهم بمذهب ابن حزم ... ونظر فى عدة فنون وشارك فى الفضائل وقال النظم والنثر ..." ، وقال أيضا : "كان إماما عالما بارعا متفننا ضابطا خيرا محبا لأهل السنة يميل إلى الحديث" ، ومدحه ابن تغري بردي (ت، ٨٧٤ هـ - ١٤٦٩ م) بقوله "شيخنا الامام العالم العلامة المتقن رأس المحدثين..." . أما السخاوى فقد أثني عليه مرة وذمه في أخرى ، فقال في مدحه " وله النظم الفائق. والنثر الرائق, والتصانيف الباهرة... وكان

حسن الصحبة حلو المحاضرة". وقال في ذمه : "كانت له معرفة قليلة بالفقه والحديث والنحو وإطلاع على أقوال السلف".

قلت : اتهام السخاوى للمقريزى بالمعرفة القليلة للفقه والحديث والنحو من مجازفات السخاوى وإلا فأين هو من قول شيخه ابن حجر عن المقريزى أنه كان إماما .... يميل إلى الحديث ، وأين هو من تدريسه الفقه والحديث والنحو فى مجالس رسمية فى ظل الدولة المملوكية ، ولو كانت معارفه قليلة من الفقه والنحو والحديث فكيف عمل فى الديوان ؟ ، وكيف تولى القضاء ؟ بل كيف صنف واختصر المصنفات فى الفقه والحديث ؟. ككتابه فى حكم الغناء ، ومختصر الكامل فى الضعفاء لابن عدى ، ومختصر قيام الليل لمحمد بن نصر المروزى ...

ظاهرية المقريزى : بدأ العلامة المقريزى حياته حنفيا مقلدا لجده ، ثم فى العشرين من عمره تحول شافعيا ، ثم تحول ظاهريا ، وأكب على مذهب أهل الظاهر ، وعلى كتب ابن حزم ، حتى اتهم بذلك كما ذكر ابن حجر.

والتدليل على ظاهريته لابد مما ليس منه بد أن نقدم الطروحات التالية :

أولا : اشتهر قديما عمن ينتحل القول بالظاهر ويسر ذلك بأنه ممن يتهم بالظاهرية أو بمذهب ابن حزم ، ولقد أقر ابن حجر نفسه أنه أى المقريزى كان يتهم بمذهب ابن حزم ، وفى المقابل وجدنا نفرا من أهل الظاهر تظاهروا بالقول بالظاهر ورفضوا السرية والكتمان.

ثانيا : معروف ان الظاهرية مذهب حديثى وكان داوود رحمه الله محبا للآثار معظما لها ، وجمع منها الكثير ، وكانت كل كتبه تفيض بالسنن والآثار ، ومن ثم فكل ظاهرى يجعل جل اهتمامه السنن والآثار ، وكان هذا شأن المقريزى رحمه الله ، وهو ما ذكره عنه ابن حجر بقوله "كان إماما بارعا مفننا

متقنا ضابطا خيرا محبا لأهل السنة يميل إلى الحديث والعمل به حتى نسب إلى الظاهر...".

ثالثا : أن ابن تغرى بردى تلميذ المقريزى أكد ظاهرية شيخه بقوله : " كان كثير التعصب على السادة الحنفية وغيرهم لميله إلى مذهب الظاهر" (٤٤) ، وفى موضع آخر نرى ابن تغرى بردى يقول : " وكان ينسبه بعض الناس إلى الميل لمذهب الظاهر لأنه كان يعظم ابن حزم المغربى إلى الغاية ، وليس فى ذلك ما يعاب لأن ابن حزم كان رجلا حافظا عالما ، ولو كان ظاهريا لم ينكر فضله" (٤٥).

قلت : هذا قول ابن تغرى ، ولعل المقريزى تستر بعض الشىء بمذهبه الظاهرى لما كان يثار حول الظاهرية وقتها من اتهامات وتبديع ، لكن الرجل أعلن حبه لابن حزم ولمصنفاته ، ومن ثم قال ابن تغرى لو كان ظاهريا ، وليس الأمر نفيا لظاهريته ، ومن ثم قرر ابن حجر اتهامه بمذهب ابن حزم.

رابعا : أن المقريزى لم يسلك مسلك التضليل والتبديع لأهل الظاهر على عصره بل إنه وصف أحدهم وهو ابن البرهان بالعبد الصالح (٤٦).

خامسا : أن المقريزى صنف كتابا وسمه بـ شارع النجاة . وهو كتاب يشتمل على ما اختلف فيه البشر من أصول دياناتهم وفروعها ، مع أدلتها وتوجيه الحق منها كما قال السخاوى ، وهذا الكتاب من ظاهر اسمه يتضح تأثر المقريزى بالإمام ابن حزم من خلال رسالته التى وسمها " التوقيف على شارع النجاة" ، وهو ما يؤيد ظاهرية المقريزى .

وفى العلوم اللسانية نلتقى بطائفة من أهل الظاهر منهم : أحمد بن صابر القيسى الشاعر الظاهرى (ت٦٦٦هـ/١٢٦٧م) خرج من الأندلس وقدم إلى مصر (٤٧) لتوعد السلطان له بقطع يده لمخالفته ما عليه المالكية (٤٨) ،

وتتضح ظاهريته من قول أثير الدين ابو حيان " كان على مذهب أهل الظاهر" (٤٩) ، وكان بارعا فى الأدب والشعر (٥٠) .

ومنهم أبو حيان الغرناطى النحوي اللغوي فريد الدهر اشتهر أمره حتى تصدر لإقراء العربية بالجامع الحاكمي والجامع الأقمر بعد موت ابن النحاس سنة ٦٩٨هـ وصار شيخ النحويين من ذلك الوقت إلى حين وفاته وقرأ الناس عليه طبقة بعد طبقة حتى ألحق الأصاغر بالأكابر .

ويتضح أثره فى علوم اللغة من قول تلميذه الصلاح الصفدي حيث قال : " وهو الذي جسر الناس على قراءة كتب ابن مالك ورغبهم فيها وشرح لهم غامضها وكان يقول في مقدمة ابن الحاجب هذه نحو الفقهاء " ، وقول السيوطي : نحوي عصره ولغويه ومفسره ومحدثه ومقرؤه ومؤرخه وأديبه.

قلت : وكان أثير الدِّين أبو حيَّان النَّحوي الأندلسي شاعرا مفلقا وشعره مجموع فى ديوان ، وله شعر في ابنته نُضار يذكر مرضَها وصبرَها ووفاتها، ويعدِّد خِلالها ومحاسنها (٥١) .

ومنهم الشهاب الأشموني أحمد بن محمد بن منصورالقاهري النحوي (ت٨٠٩هـ). كان فاضلاً في العربية مشاركاً في الفنون ويقول الشعر الجيد ، وكان يقرأ على الحافظ العراقي في كل سنة في رمضان من صحيح البخاري ومسلم ، وله مصنف فى النحو عنونه بـ " منظومة فى النحو على قافية اللام ". قال عنها ابن حجر : أذن فيها بعلو قدره في الفن وشرحها شرحاً مفيداً سمعت منه شيئاً منها وسألني في تقريظها فكتبت عليها شيئاً ، ومن قول المقريزى يتضح أنه انتحل القول بالظاهر ثم تركه حيث قال : شارك في الفقه ومال إلى أهل الظاهر ثم انحرف عنهم وأكثر الوقيعة فيهم.

ومنهم البدر البشتكى الشاعر الشهير (ت ٨٣٠هـ) : أبو البقاء محمد بن إبراهيم بن محمد البدر الأنصارى المصرى الأصل المعروف بالبدر البشتكى ولد في أحد الربيعين سنة ٧٤٨ بجوار جامع بشتك الناصرى فقرأ القرآن وحفظ الكتاب في فقه الحنفية ثم تحول شافعيا ثم أمعن النظر في كتب ابن حزم فغلب عليه حبه وهو ما يؤكده ابن حجر بقوله : قال ابن حجر : أحب المذهب الظاهرى على طريقة ابن حزم وامتحن بسبب ذلك بمكة على يد أبى الفضل النويرى قاضيها ، ... وامتحن أيضا بالقاهرة على يد البرهان الإخنائى وحبس ثم أطلق .

قلت : وكل هذه المؤشرات تؤكد أن الدولة ما كانت تسمح رسميا بوجود المذهب الظاهرى فى عصر المماليك ، وسنرى ذلك جليا من خلال الحديث عن الفتنة الظاهرية .

وقد أخذ البدر البشتكى الأدب عن ابن نباته وقال الشعر الحسن فكان يحكيه في رقة وانسجام ويتضح أثره فى الأدب من خلال كتابه الحافل في طبقات الشعراء ، وجمعه لديوان شيخه ابن نباته [٥٢] ولم يجمع هو نظم نفسه مع كثرته فجمعه الشهاب الحجازى مما يؤكد أثره الشعرى .

وتتضح جهوده العلمية فى العلوم اللسانية وغيرها من خلال قدرته الفائقة فى نسخ المصنفات حيث كان يكتب في اليوم خمس كراريس فأكثر وربما تعب فيضطجع على جنبه ويكتب ، وكتب لنفسه ولغيره مالا يدخل تحت الحصر حسب تعبير المصادر ، ولم يكن يقبل العطايا ، ومن ذلك أن بعض الأكابر أرسل إليه بعشرة دنانير فشتم من أرسله وقال لا حاجة لى في ذلك فأخذ جرابه فنثر ما فيه من ذهب وفضة وفلوس بحضرته .

الجدير بالذكر أنه ما كان يسكت على ما يراه خطأ ولو كان لكبار الأعيان ، ومن ذلك أنه قال للكمال الدميرى لما بلغه أنه شرح سنن ابن ماجه

سماه " بعرة الدجاجة " ، ولما سمى البلقينى مؤلفاته الفوائد المنتهضة على الرافعى والروضة كان يقول الروضة بفتح الواو يشير إلى أن السجع غير متناسب فغير البلقينى التسمية إلى الفوائد المحضة [٥٣] .

وفى العلوم العقلية نلتقى بجماعة من أهل الظاهر منهم : عبدالرحمن بن عبدالوهاب عماد الدين النابلسى (من أهل القرن السابع الهجرى) شيخ أبى حيان الغرناطى حفظ جملة من شعر أبى العلاء المعرى ، واشتغل بالطب وانكب عليه الناس يستفيدون من علمه . قال أبو حيان الغرناطى " كان يميل إلى كلام ابن حزم ويعظمه ، وقرأت عليه جملة من الأرجوزة المنسوبة لأبى على ابن سينا فى الطب بحثا ونظرا وقيدت لى جملة منها شرحا [٥٤] .

ومنهم أبو الحسن على بن إبراهيم بن خضر بن سعد بن معاذ الأنصارى الأوسى (ت ٧٧٤هـ) كتب بخطه كتبا كثيرة فى الكيمياء [٥٥] .

وفى التاريخ نلتقى بأبى حيان الغرناطى الذى بز كمؤرخ من خلال مصنفاته ومنها : ١- قطر الحبِّي في جواب أسئلة الذَّهَبي وللأسف فهو من كتبه المفقوده ، وموضوعُه أسئلة في التَّراجم تتصل بعدد من الأعلام المغاربة والأندلسيِّين تقدَّم بها الذهبي إلى شيخه أبي حيَّان ثقةً بدرايته التامَّة بأعلام تلك المنطقة وخبرته بأسمائهم واستيعابه لأخبارهم، ومعرفته بطريقة ضبط النُّطق بها عندهم. ٢- النُّضار في المَسْلاَة عن نُضار . من تصانيفه المفقودة ، ويقع في مجلَّد ضخم ترجم فيه لنفسه ولكثير من شُيوخه، ذكر فيه أوَّل حاله وابتداء أمره، وصفة رحلته واشتغاله، كتبه إثر وفاة ابنته الفاضلة والشابَّة الصَّالحة ((نُضَار)) (٧٠٢ - ٧٣٠هـ)، وقد تأثَّر جدّاً لوفاتها وخلَّد ذِكْرَها بهذا الكتاب وبقصائدَ عديدةٍ حزينة ضمَّنها ديوانه، وعدَّد فيها صفات ابنته وأخلاقَها وشدَّة اشتغالها بالقرآن والحديث وفنون من العلوم[٥٦] ، وقد وقف الحافظ ابن حجر (٨٥٢ هـ) على نسخة من الكتاب بخطِّ مؤلِّفه أبي حيَّان ومَدَحَهُ بقوله : " وقفتُ

عليه بخطِّه وهو كثيرُ الفوائد " وقال : " استطرد إلى أشياءَ كثيرةٍ تشتمل على فوائدَ غزيرةٍ قد لخَّصتها في التذكرة " [٥٧] ويبدو أنها النُّسخةُ نفسُها التي آلت إلى الحافظ جلال الدين السُّيوطي الذي أكثر النَّقل عنه في كتابه بغية الوعاة في طبقات اللُّغويِّين والنُّحاة. ومن الكتب الصغار ما ينيف على أربعين تصنيفا وغالبها في القراءات والعربية .٣-تحفة الندس فى نحاة الأندلس . ٤- مجانى الهصر فى آداب وتواريخ أهل العصر . ٥- مشيخة ابن أبى المنصور . ٦- نفحة المسك فى سيرة الترك . وكلها للأسف مفقودة.

ومن مؤرخى أهل الظاهر تقى الدين المقريزى (ت٨٤٥هـ) عمدة مؤرخى عصر المماليك وألمع مؤرخى أهل الظاهر والذى تناول التاريخ من شتى فروع وموضوعاته [٥٨] ، وترك بصماته على طائفةٍ من تلاميذه منهم يوسف بن تغري بردي (٨٧٤ هـ - ١٤٦٩ م) الذي كان من أبرزتلاميذه واحتل بعد وفاة أستاذه والمؤرخ العيني مركز الصدارة بين مؤرخي عصره.

ولقد أفاض كبار مؤرخى العصر عن جهود المقريزى التاريخية فقال ابن حجر: " وأقام ببلده عاكفا على الاشتغال بالتاريخ حتى اشتهر به ذكره وبعد فيه صيته وصارت له فيه جملة تصانيف كالخطط والآثار للقاهرة وهو من أحسن الكتب وأنفعها وفيه عجائب ومواعظ ... وقال ... له النظم الفائق والنثر الرائق والتصانيف الباهرة خصوصا فى تاريخ القاهرة فإنه أحيا معالمها وأوضح مجاهلها وجدد مأثرها وترجم أعيانها ..." ، **وقال** ابن تغري بردي : "شيخنا الإمام العالم العلامة المتقن رأس المحدثين وعمدة المؤرخين تقي الدين المقريزي الشافعي وأتقن من حررتاريخ الزمان وأضبط من ألف في هذا الشأن..."

موقف السخاوى من المقريزى : اشتهر السخاوى بتحامله على معاصريه تحاملا بينا وما قوله فى السيوطى منا ببعيد [٥٩] . لقد تحدث السخاوى

عن المقريزى واصفا إياه بالحفظ والضبط وخلافه ولكن مع ذلك وجه إليه تهمة سرقة كتابه الخطط من مسودة لمؤرخ معاصر وهو شهاب الدين الأوحدى وكرر هذه التهمة فى كتابه التبر المسبوك ، وفى رسالته الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ. كما قال عن المقريزى " وأما الوقائع الإسلامية ومعرفة الرجال وأسماؤهم والجرح والتعديل ، والمراتب والسير ، وغير ذلك من أسرار التاريخ ومحاسنه فغير ماهر فيه.." (٦٠) .

قلت : ولا يمكن التعويل على كلام السخاوى للأسباب التالية :

أولا : أن السخاوى شهد للمقريزى بالحفظ والضبط ، ومعروف أن صاحب الحفظ والضبط يكون ماهرا وعارفا بدقائق الأمور . فكيف نقبل اتهام السخاوى للمقريزى بأنه غير ماهر فى أسرار التاريخ ؟.

ثانيا : أن كبار المؤرخين وعلى رأسهم ابن حجر شيخ السخاوى شهدوا للمقريزى بعلو كعبه ومقدرته الفائقة فى دراسة التاريخ ومعرفة بواطن الأمور .

ثالثا : أن السخاوى عرف عنه تطاوله وانتقاده وغمزه لكل من بز واشتهر أمره من معاصريه حتى ولو قال فيه قولا حسنا .

رابعا : أن المقريزى فى كتابه الخطط غالبا ما يذكر اقتباساته من أسلافه كتاب الخطط بطريق الإسناد ؟ فأين السرقة التى سرقها من الأوحدى ؟ ربما يكون استفاد من فكره وطريقته ، أما أن يكون قد سرق ونسب لنفسه ما ليس له فهذا ما لا يمكن أن يقع من المقريزى أبدا .

الجهود السياسية لأهل الظاهر فى العصر المملوكى: يتضح دور أهل الظاهر فى الحياة السياسية من خلال تواجد بعضهم فى مناصب عليا بالدولة قدموا من خلالها خدمات جليلة للدولة والرعية ومن هؤلاء :

الأمير ناصر الدين بن جنكلي [٦١] بن البابا(ت ٧٤١هـ) أحد أمـراء الدولة الناصرية بالقاهرة كان جمال مواكب الديار المصرية وجهاً وصباحةً وقداً وشكلاً محبباً تام الخلق حسن الخلق لم يكن في زمانه أحسن وجهاً منه اشـتغل في غالب العلوم ولم يزل مواظباً على سماع الحديث واختلط كثيراً بالشيخ فتح الدين ابن سيد الناس حفيد أبي بكر بن سيد الناس اليعمري الإشـبيلي الحـافظ المحدث أحد أعلام الظاهرية وعنه أخذ معرفة الناس وأيامهم وطبقاتهم وأسماء الرجال ، وكان الأمير ناصر الدين آية في معرفة فقه السلف ونقـل مـذاهبهم وأقوال الصحابة والتابعين مع مشاركة جيدة في العربية والطب والموسـيقى ، وكان في أوله يتمذهب بمذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه.

قلت : وهذا الأمير شخصية محيرة فى التاريخ . بل عائلته كلها وهى عائلة آل جنكلى فقد كانوا أمراء فى عصر المماليك ، وكان لهم دور كبير فـى توليـة السلطان ، وعزله ، فضلا عن جهودهم الكبيرة فـى الحـروب ، وفـى قيـام الثورات وخلافه .

وبشان الجنكلى الأمير فقد ذكر المقريزي عن شـيخه شـمس الـدين النحوى محمد بن محمد الغمارى عن أبي حيان – الغرناطى الظاهرى– قال : " ألزمني الأمير ناصر الدين محمد بن جنكلي بن الباب المسير معه لزيارة أحمد البدوي بناحية طنتدى – طنطا الحالية وهى عاصمة محافظة الغربية بمـصر– فوافيناه يوم الجمعة وإذا هو رجل طوال عليه ثوب جوخ عال وعمامة صوف رفيع والناس تأتيه أفواجاً فمنهم من يقول يا سيدي خاطرك مع غنمـي وآخـر يقول مع بقري وآخر مع زرعي إلى أن حان وقت الصلاة فنزلنـا معـه إلـى الجامع بطنتدى وجلسنا انتظار الصلاة فلما فرغ الخطيب من خطبة الجمعـة ، وأقيمت الصلاة وضع الشيخ أحمد البدوى رأسه في طوقه بعـدما قـام قائمـاً

وكشف عن عورته بحضرة الناس وبال على ثيابه وعلى حصر المسجد واستمر ورأسه في طوق ثوبه وهو جالس حتى انقضت الصلاة ولم يصل " [٦٢] .

وقد ذكر هذه القصة نقلا عن المقريزى العلامة شمس الدين السخاوى تلميذ ابن حجر العسقلانى فى ترجمة محمد بن محمد بن علي بن عبد الرزاق الشمس أبي عبد الله الغماري شيخ العلامة المقريزى [٦٣] .

قلت : وهذه القصة لا تصح تاريخيا من وجوه:

الأول : أن الأمير ناصر الدين ابن جنكلي ولد سنة ٦٧٥ أي في السنة التي مات فيها البدوي .

ثانيا : أن الأمير الجنكلى لم يولد في مصر بل دخل مصر سنة ٧٠٢ أو ٧٠٣ أي بعد وفاة البدوي بخمس وعشرين سنة تقريبا .

ثالثا : أننا لو فرضنا جدلا أن الأمير الجنكلى هو الجد وليس الحفيد لتستقيم القصة مع الواقع التاريخى فسيبقى الإشكال قائما فى أن أبا حيان الغرناطى لم يدخل مصر إلا سنة ٦٧٨هـ أو سنة ٦٧٩ هـ أي بعد وفاة أحمد البدوي ببضع سنين. ومن ثم لا أدرى هل هذا السياق هو من تدوين المقريزى نفسه ؟!!! أم أن تحريفا وقع فى الرواية ؟ أم أن يد النساخ تطرقت لأصل الكتاب وأدرجت هذه القصة ؟. فالله أعلم بالصواب.

وقد ذكر العلامة المقريزى " الجنكلى أيضا" فى كتابه العظيم السلوك لمعرفة دول الملوك فى أحداث سنة ٧٣٢هـ بقوله " وفيه – أى يوم الاثنين ٥ صفر– أنعم – أى السلطان – على الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير جنكلي بن البابا بإمرة طبلخاناه[٦٤] وأنعم بعشرة على أخيه.كما ذكره المؤرخ الشهير ابن تغرى بردى فى كتابه النجوم الزاهرة فى أحداث سنة ٧٤١هـ وقال عنه "

توفي الأمير ناصر الدين محمد بن الأمير بدر الدين جنكلي بن البابا في يوم الرابع والعشرين من رجب، وكان من أعيان الأمراء وكان فقيهًا أديبًا شاعرًا" .

ظاهريته : قال الصفدى وفي آخر الأمر مال إلى الظاهر ورأى رأي ابن حزم وكان كثير المطالعة لكلامه[٦٥] .

قلت : لا شك أن تحول شخصية بقدر وقيمة الجنكلى إلى القول بالظاهر كان له أثره فى تخفيف التنكيب بالظاهرية فضلا عن معاونتهم بما يحتاجونه من مصنفات ، والسماح لهم ببعض الدروس وخلافه ، بل والتواصل معهم لا سيما وأنه كان من أهل الفقه والحديث كما سبق.

ومنهم الأمير شرف الدين موسى بن الفاقا (ت ٧٨٨هـ). استدار [٦٦] الأمير أيتمش البجاسى ، كانت لديه فضيلة وثروة وحشم ، وكان ركنا ركينا لأهل الظاهر ورأسا كبيرا من رؤوسهم حسب وصف المصادر [٦٧] ، بل إنه من شدته على المخالفين ودفاعه عن مذهبه الظاهرى وصف من قبل البعض بالتعصب للظاهرية [٦٨] .

ومنهم علاء الدين أبو الحسن علي بن عمر بن سلمان الخوارزمي (ت ٨٠٦هـ) ولد سنة ٧٦٦هـ بالقاهرة وكان أبوه من الأجناد فنشأ هو على أجمل طريق وأحسن سيرة وأكب على الاشتغال بالعلم ثم طالع في كتب ابن حزم فهوى كلامه واشتهر بمحبته والقول بمقالته وتظاهر بالظاهر وكان حسن العبادة كثير الإقبال على التضرع والدعاء والابتهال ونزل عن اقطاعه سنة بضع وثمانين وسبعمائة وأقام بالشام ثم عاد إلى مصر وباشر العمل عند بعض الأمراء [٦٩] .

ومنهم أحمد بن طوغان بن عبدالله الشيخونى (ت ٨٠٨هـ) عرف بدويدار النائب لأن أباه مات وهو صغير فرباه النائب سودون وباشر الدويدارية

عنده ، واختص بملازمة أهل الحديث ولازم مطالعة كتب أهل الظاهر واشتهر بذلك وصار مأوى لكل من ينتحل القول بالظاهر ، وهو ما يؤكد كثـرة أهـل الظاهر فى ذلك الزمان.

ومنهم المؤرخ الشهير تقى الدين المقريزى (ت ٨٤٥هـ) الذى تقلد أول عمل له بديوان الإنشاء في القلعة ويقابله الآن وزارة الخارجية وهي وظيفة لا يبلغها إلا من كان له مؤهلات عالية من الموهبة والتفوق في اللغة , والأدب, والتاريخ , ومعرفة أحوال البلاد المجاورة لهم ثم أضحى بعدها نائبا من نـواب الحكم وقاضيا عند قاضي القضاة للشافعية . إلا أن النقلة النوعية المهمـة فـي حياته تمثلت فى توليه وظيفة المحتسب ، إذ عينه السلطان برقـوق محتـسبا للقاهرة والوجه البحري سنة ٨٠١ هـ ١٣٩٨ م, والتي من خلالها اطلع علـى أحوال مصر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية مثل الأسـعار والـضرائب , والإجراءات الرسمية ، والتي سطرها في مصنفاته وأفادته كثيرا .

وتجدر الإشارة إلى أن الدور السياسى لأهل الظـاهر فـى العـصر المملوكى لم يقتصر على تولى بعضهم لبعض المناصب بل كان دورهم أبعد من ذلك بكثير إذ شاركوا فى ثورة ضد الظاهر برقوق عرفت تاريخيا باسم " الفتنة الظاهرية " وامتدت أحداثها لتشمل مصر والشام ، وكان سببها أن الملك الظاهر برقوق قبض على الخليفة المتوكل على الله بن المعتضد (٧٦٣هـ- ٨٠٨هـ) في سنة ٧٨٥ وخلعه من منصب الخلافة وحبسه بالقلعة ، وبويع بالخلافة لمحمد بن إبراهيم بن المستمسك بن الحاكم ، ولقب الواثق بالله ، وقـد كلـم النـاس السلطان فى إعادة المتوكل إلى الخلافة فرفض ، وأحضر زكريا بن إبراهيم بن المستمسك وولاه منصب الخلافة ولقب بالمستعصم بالله خلفا لأخيه الذى تـولى أياما يسيرة [٧٠] . غضب أحمد بن البرهان الظاهرى من فعل الظاهر برقـوق وخرج في سنة ٧٨٥هـ إلى الشام ثم إلى العراق يدعو إلى طاعة رجـل مـن

قريش ثم رجع إلى الشام فتبعه كثير من أهلها ، ولما انتشر أمره صدر الفرمان من السلطان بالقبض على ابن البرهان ومن تبعه على رأيه [٧١] ، ولما أحضر ابن البرهان إلى السلطان استفهمه عن سبب قيامه عليه فأعلمه أن غرضه أن يقوم رجل من قريش يحكم بالعدل وأعلمه بأن هذا هو الدين ولا يجوز غيره وزاد في نحو ذلك فسأله عمن معه على مثل رأيه من الأمراء فبرأهم وأمر بضربه فضرب هو وأصحابه وحبسوا بالخزانة المعدة لأهل الجرائم وذلك في ذي الحجة سنة ٧٨٨هـ ثم أفرج عنهم في ربيع الأول سنة ٧٩١هـ فاستمر ابن البرهان مقيما بالقاهرة حتى مات [٧٢] .

لم يقتصر جهد ابن البرهان السياسى على ما قام به من ثورة حقيقية ضد السلطان بل أصل فكرته فى رسالة وسمها بالإمامة ، وللأسف فإنها مفقودة، ولكن الذى لا شك فيه أنه جعل القرشية شرطا من شروط الخلافة فى رسالته هذه .

وممن شارك فى الثورة على السلطان برقوق من أهل الظاهر الحافظ سليمان بن يوسف بن مفلح بن أبى الوفاء الياسوفى (ت ٧٨٩هـ) حيث أيد ابن البرهان فى دعوته وسجن بالقلعة فمات مبطونا شهيدا في شعبان سنة ٧٨٩ واستراح من المحنة التي أصابت أصحابه [٧٣] ، ومنهم الفقيه أبو زيد علي بن زيد بن علوان بن صبرط بن مهدي بن حريز الردماوي الزبيدي (ت٨١٣هـ) إلا أنه خشى على نفسه فاختفى بالصعيد.

الجدير بالذكر أن هذه الثورة قد أثمرت فى النهاية ففى العام ٧٩١هـ أفرج الظاهر برقوق عن معتقلى الثورة ، وندم على ما فعل بالمتوكل وأعاده إلى منصبه [٧٤] .

الهوامش :

(*) مدرس تاريخ إسلامى .

[1] هم من يعولون على النصوص والإجماع المتيقن فحسب ، وتعود جذورهم إلى أيام الصحابة حيث واقعة بنى قريظة كما بيناه فى كتابنا تاريخ أهل الظاهر ، وقد ظل الأمر على ذلك حيث تبنى هذا المنهج جماعة من التابعين إلى أن ظهر داود بن على الأصبهانى فأصل المنهج الظاهرى وصنف المصنفات الماتعة التى اعتمد عليها كل من أتى بعده من أهل الظاهر .

[2] عن هذه الجهود أنظر كتابنا تاريخ أهل الظاهر ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ٢٠١٤م .

[3] أنظر :الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرناقوط ومحمد نعيم العرقسوسى ، مؤسسة الرسالة ، ط١١ ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ٤٥٤/٢٠ ؛ ونفس المؤلف ، العبر في خبر من غبر ، تحقيق محمد السعيد ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ج٣ أحداث سنة سبع وثمانين وخمس مائة.

[4] أصله من سنهور قرية من قرى المحلة بمحافظة الغربية بمصر . أنظر : ابن حجر ، لسان الميزان ، ٥٤/١.

[5] ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٨هت/١٩٧٨م ، ٤٤٨/٣-٤٥٠ ؛ وانظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ، دار الغد العربى ، القاهرة ، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ١١٦/١٣ ؛ أنس وجّاج ، أبو الخطاب ابن دحية الكلبي السبتي الحافظ الرحال ، منشورات الرابطة المحمدية للعلماء، ٢٠١٠، ص ٣٥ وما بعدها.

[6] أنظر: ابن كثير ، البداية والنهاية، ١١٦/١٣ ؛ السيوطى ، بغية الوعاة ، تحقيق محمد أبو الفضل ، المكتبة العصرية ، بيروت ، (د.ت) ، ٢١٨/٢؛ تاريخ الخلفاء ، دار الفكر ، بيروت ، ص ٤٢١.

[7] ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ١١/٦.

[٨] ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٨٩٦/١٢؛ وانظر: الصفدى ، الوافى بالوفيات ، فرانز ستايز شتوتفارت ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، ١٨٤/٨ ؛ الزبيدى ، ترويح القلوب بذكر ملوك بنى أيوب ، تحقيق مديحة الشرقاوى ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ص٩٩ ؛ الزركلى ، الأعلام ، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥ ، ٢٧٣/١.

[٩] عبدالباقى السيد ، ابن حزم الظاهرى وأثره فى المجتمع الأندلسى ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ٢٠١٤م ، ص٢٤٨-٢٤٩ ؛ نفس المؤلف ، الظاهرية والمالكية واثرهما فى المغرب والأندلس فى عهد الموحدين ، دار الآفاق العربية ، ٢٠١٤م ، ص٣١٦-٣١٨.

[١٠] انظر عنه بالتفصيل توفيق الغلبزورى ، المدرسة الظاهرية بالمغرب والأندلس ، دار ابن حزم ، الرياض ، ط١ ، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م ، ٣٧١-٣٧٣.

[١١] أنظر : المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي ، دار الغرب الإسلامى ،ط١ ، ١٤١١هـ ، ٢٤/٧.

[١٢] أنظر: الذهبى ، المعجم المختص بالمحدثين ،تحقيق محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق ، الطائف ، ط١ ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، ص٢٥٧

[١٣] أنظر: ابن قاضى شهبه ، طبقات الشافعية ، دار المعارف العثمانية ، الهند ، ١٥٠/٢

[١٤] أنظر:الدرر الكامنة ، دار المعارف العثمانية ، الهند ، ١٧٨/٤.

[١٥] أنظر: الذهبى ، المعجم المختص بالمحدثين ، ص٢٥٧

[١٦] أنظر :غاية النهاية في طبقات القراء ، تحقيق ج برجستراسر ،دار الكتب العلمية ، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م ،٢٨٦/٢.

[١٧] أنظر الحسينى ، ذيل تذكرة الحفاظ ، مكتبة القدسى ، ٢٣-٢٩.

[١٨] نقلا عن ابن العماد ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، (د.ت)، ١٤٦/٦.

[19] عن مصنفاته فى العلوم الشرعية ومعرفة المطبوع منها من المفقود أنظر : مـأمون بـن محيي الدين الجنان ، أبو حيان الأندلسى ومنهجـه التفـسيرى ، دار الكتـب العلميـة ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م ، ص٥٤-٥٦.

[20] نقلا عن : الصفدى ، الوافى ، ١٣٤/٤.

[21] أنظر : المقرى ، نفح الطيب ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، ١٩٦٨م ، ٦٥٦/٢

[22] أنظر : البحر المحيط ، مطبعة كويك حمـادة الجريـسى ، ط١ ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م ، ١٠٣/١.

[23] Asin placios , Abn hazam de Cordoba y Su historia critica de Las ideas religiosus , Madrid , ١٩٢٧ , P.٣١٨،٣١٩ ؛ وانظر: عبدالسميع محمد أحمد ، ترجمة أبـى حيـان بكتابه البحر المحيط ، ١٣٩/١ ؛ الغلبزورى ، المدرسة الظاهرية ، ص٤٠٢-٤٢٨.

[24] أنظر : تفسير البحر المحيط ٦٦٢/١ ــ ٦٦٣

[25] خديجة الحديثى ، أبوحيان النحوى ، مكتبة النهضة ، بغداد ، ١٩٦٦م ، ص١٤.

[26] ابن قاضى شهبه ، طبقات الشافعية ، ٦٧/٣- ٧٠.

[27] أنظر: المقفى الكبير ، ٥٠٥/٧.

[28] ابن الجزرى ، غاية النهاية ، ٥٧/١.

[29] ابن حجر ، إنباء الغمر، تحقيق حسن حبشى، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م ، ٤٥/١.

[30] ابن حجر ، إنباء الغمر ، ٢٥٨،٢٥٩/١.

[31] نفسه ، ٣٤٠،٣٤١/١.

[32] أنظر : درر العقود ، تحقيق محمود الجليلى ، دار الغرب ، ط١ ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ٢٠٦،٢٠٧/١.

[33] أنظر : ذيل الدرر الكامنة، معهد المخطوطات العربية ،١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، ص٩٥.

[٣٤] أنظر : درر العقود ، ١٤٩/١، ١٥٠.

[٣٥] نفسه ، ١٤٩/١.

[٣٦] السخاوى ، الضوء اللامع ، دار الجيل ، بيروت ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ، ٨٤/٢.

[٣٧] ابن حجر ، إنباء الغمر ، ٢/ وفيات سنة ٨١٣هـ.

[٣٨] أنظر : نفس المصدر والمكان والصفحة.

[٣٩] أنظر : درر العقود ، ١٥٨/١.

[٤٠] أنظر : الضوء الامع ، ٥٤/١١.

[٤١] لمزيد من التفاصيل عن شيوخه أنظر : عبدالباقى السيد ، تاريخ أهل الظاهر ، ص٦٦٥.

[٤٢] محمد كمال الدين ، أربعة مؤرخين وأربعة ملفات من دولة المماليك الجراكسة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٢م ، ص١٧٣ ؛ وانظر : عبدالباقى السيد ، تاريخ أهل الظاهر ، ص٦٦٠، ٦٥٩.

[٤٣] عنها أنظر : عبدالباقى السيد ، مرجع سابق ، ص٦٦٨، ٦٦٧.

[٤٤] أنظر : الدليل الشافى على المنهل الصافى ، تحقيق فهيم محمد علوى ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٨م ، ١ /٣٩٦.

[٤٥] أنظر : حوادث الدهور ، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين ، عالم الكتب ، ط١ ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، ص

[٤٦] أنظر : درر العقود ، ١٤٩/١، ١٥٠.

[٤٧] أنظر : بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ،١٩٥٥م ، ص٢٣٨؛ وانظر : الغلبزورى ، المدرسة الظاهرية ، ص٣٦٧، ٣٦٦.

[٤٨] المقرى ، نفح الطيب ، ٦٥٥/٢

[٤٩] نقلا عن : المقرى ، نفح الطيب ، ٦٥٥/٢

[٥٠] نقلا عن : المقرى ، نفح الطيب ، ٦٥٥/٢ ؛ وانظر : ابن عبدالملك ، الذيل والتكملة ، تحقيق محمد بن شريفه ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، ١٩٨٤، س١ ق ٢ ص٤٣٧،٤٣٨.

[٥١] أنظر : ديوان أبي حيَّان الأندلسي ، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي ، بغداد ، ١٩٦٩م ، ص٢٢٨-٢٣١ ؛ ومن مصنفاته فى علوم اللغة ١- ارتشاف الضرب من لسان العرب (مطبوع) . ٢- الإدراك في لسان الأتراك (مطبوع). ٣-اللمحة البدرية في علم العربية (مطبوع) ٤-منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك (مطبوع) ٥- الارتضاء فى الفرق بين الضاد والظاء (مطبوع). ٦-النهر من البحر وشرح التسهيل . ٧- تقريب المقرب لابن عصفور (مخطوط) ٨- التذييل والتكميل في شرح التسهيل (مخطوط) وهو أضخم كتبه النحوية . ٩- النكت الحسان فى شرح غاية الإحسان (مخطوط). ١٠- إعراب القرآن (مخطوط) . ١١- الموفور من شرح ابن عصفور (مخطوط). ١٢- كتاب التذكرة نحو ثلاث مجلدات . ١٣-.نور الغبش في لسان الحبش (مفقود). ١٤- التجريد لأحكام سيبويه (مفقود).

[٥٢] فاته من شعر شيخه الكثير فاستدرك عليه ابن حجر مما فاته من شعر ابن نباته نحو مجلد.

[٥٣] السخاوى ، الضوء اللامع ، ٢٤٩/٨-٢٥١ ؛ وانظر : الشوكانى ، البدر الطالع ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ط١ ، ١٣٤٨هـ ، ٩٣/٢، ٩٤.

[٥٤] الصفدى ، الوافى ، ١٨٢/١٨،١٨٣.

[٥٥] ابن حجر ، إنباء الغمر ، ٤٥/١.

[٥٦] انظر.: الصفدى ، مصدر سابق ، ٧٧/٢٧ – ٧٨؛ ابن حجر ، الدُرَر الكامنة ١٦١/٦.

[٥٧] أنظر : الدُرَر الكامنة ، ١٦١/٦،٦١.

[٥٨] عن مصنفاته التاريخية أنظر : عبدالباقى السيد ، تاريخ أهل الظاهر ، ص٦٦٦-٦٦٨.

[٥٩] فصلنا ذلك فى كتابنا " السخاوى وجهوده فى الكتابة التاريخية " تحت الطبع .

[٦٠] أنظر : الضوء اللامع ، مجلد١ قسم ٣ ص٥٣٣.

[٦١] جنكلي: نوع من الخشب أسود اللون أو رصاصي غامق، يستخدم في بناء السفن.قال الحنفي: (والنسبة فيه إلى (Jungle) بالانجليزية أي غابة. وربما كانت من (جنكل) الفارسية أي غابة، وترد اللفظة عند أهل البصرة والعراق والكويت في قولهم: (فلان جنكلي) أي لا يفهم شيئاً. فكان من عاش في الغابة كان ساذجاً بعيدا عن فهم أوضاع الناس في المدن.

[٦٢] أنظر : درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة، ٣/ ٧٧.

[٦٣] أنظر : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ١٥٠/٩.

[٦٤] الطبلخانة هى موسيقى الجيش ،أو الفرقة الموسيقية السلطانية ، وهى لفظ فارسى ، وأمير الطبلخانة هو الأمير الذى تدق الطبول والأبواق على أبوابه. وهو أمير تحت أمرته غالباً أربعين فارس. أمير من الطبقة الثانية. منهم يكون أرباب الوظائف وكبار الولاة. أنظر : محمد أحمد دهمان ، معجم الألفاظ التاريخية فى العصر المملوكى ، دار الفكر ، بيروت – دمشق ، ص١٠٦.

[٦٥] أنظر : الوافي بالوفيات ، ترجمة ٧٥٥ ، ٢/ ٣١١،٣١٠.

[٦٦] الأستدار بضم الهمزة لقب مملوكى يطلق على القائم بالشئون الخاصة للسلطان ، وبكسر الهمزة لقب يطلق على من يتولى قبض المال السلطانى وصرفه ، وتمثيل أوامر السلطان فيه . أنظر : معجم الألفاظ التاريخية فى العصر المملوكى ، ص١٤،١٥.

[٦٧] أنظر : المقريزى ، السلوك ، وفيات سنة ٧٨٨هـ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ٢٥٤/١١.

[٦٨] ابن حجر ، إنباء الغمر ،٣٣٠/١.

[٦٩] أنظر : ابن العماد ، شذرات الذهب ، ٥٩/٤ .

[٧٠] السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص٤٦٣،٤٦٤.

[٧١] كان السلطان برقوق قد أصدر مرسوما بشأن هذه الفتنة جاء فيه " بلغنا أن بدمشق جماعة ينتحلون مذهب ابن حزم وداود الظاهرى ويدعون إليه ويظهرون مقالته منهم القرشى وابن الجابى وابن الحسبانى والياسوفى ، ومرسومنا يتقدم بطلب المذكورين ، فإن ثبت

عليهم من ذلك شيء عمل معهم ما يقتضيه الشرع الشريف من الضرب والنفي وقطع معاليمهم ويولاها من هو من أهل السنة والجماعة".

[٧٢] ابن حجر ، إنباء الغمر ، ٢/ ١٦٧. وفيات سنة ٨٠٨هـ.

[٧٣] نفسه ، ١/٣٤٠،٣٤١.

[٧٤] السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص٤٦٤.

* * *